حوليات آداب عين شمس المجلد 51 (عدد يناير – مارس 2023)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

جماليات المكان في رواية "المد" لسميحة خريس
دراسة تحليلية

د. عبير جراد النوايسة*

أستاذ مساعد – جامعة البلقاء التطبيقية – كلية الكرك الجامعية – الأردن –عمان
Abeer.nawaiseh@bau.edu

تاريخ الاستلام: 2022/1/19
تاريخ قبول البحث: 2022/2/10
تاريخ النشر: 2023/3/31

المستخلص:

تهدف الدراسة المعنونة بـــ (جماليات المكان في رواية "المد" لسمحة خريس) إلى الوقوف على جماليات المكان، وأنواعه في الرواية عنوان الدراسة من خلال التمهيد للمكان، ومفهومه من الناحيتين اللغوية، والاصطلاحية، ثم الحديث عن أنواع المكان الظاهرة في الرواية مثل: الأماكن المفتوحة، والمغلقة، ومدى ارتباطها بواقع المكان، ومدلولاته المختلفة. للخروج برؤية خاصة تعكس جماليات المكان، وطبيعته في أعمال سميحة خريس، وهل يعكس المكان فعلاً حكاية الرواية وأبطالها. أما المنهج المتبع في الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي؛ وذلك بالوقوف عند جماليات المكان، وربطها بأحداث وشخوص النص ودلالته. وخرجت الدراسة بالنتائج التالية: تنوع محاور المكان ما بين المفتوح والمغلق، حيث عكست هذه الأماكن الجوانب النفسية، والاجتماعية، والفكرية، والدينية من حياة الشخصيات، إضافة لعكسها الصورة الحضارية، والعمرانية للمكان. كما توصي الباحثة الدارسين بضرورة إعطاء الرواية العربية النسوية عامة، والأردنية خاصة، حظاً أوفر من الدراسات العلمية.

الكلمات المفتاحية: المكان، المكان المفتوح، المكان المغلق، جماليات المكان، المد.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2023.

المقدّمة:

للمكان واقعه وإيقاعه الخاص في الأعمال النثرية بصورة عامة، وفي الرواية بصورة خاصة؛ لأنه المرآة التي تعكس حكايات أصحابها، وتجسد أحداث النص لذلك نجده يأخذ معالماً خاصة في العمل الروائي، حيث يعكس كل مكان فيها جانباً غير الآخر.

ومن هنا جاءت الدراسة لتقف عند المكان وإبرازه في رواية "المد" لسميحة خريس، واعتمدت الباحثة على المنهج الوصفي التحليلي للمكان، وذلك بتفنيده وربطه بحتمية المكان من جهة، وبأحداث وحكايات أبطاله من جهةٍ أخرى.

وقد قسمت الدراسة إلى المحاور الآتية:

1- المحور الأول: ويتناول التعريف بالمكان لغة واصطلاحاً، ورؤية الكتاب له ولمدلولاته.

2- المحور الثاني: يقف عند أنواع المكان الظاهرة في الرواية، وتفنيد دلالاتها.

3- الخاتمة: وتبحث في نتائج الدراسة والتوصيات التي خرجت بها الباحثة.

التعريف بالكاتبة:

سميحة خريس: كاتبة أردنية من مواليد عمان عام 1956، حاصلة على شهادة البكالوريوس في علم الاجتماع من جامعة القاهرة، عملت في مجال الصحافة، وكانت عضواً بارزاً في مجالس مختلفة كإدارة الإذاعة والتلفزيون، ووكالة الأنباء الأردنية "بترا"، وحصلتْ على جوائز متعددة عن أعمالها الروائية والقصصية. وبرزت في مجالي القصة والرواية، ولها مؤلفات كثيرة في هذين الحقلين[1].

المحور الأول: مفهوم المكان/ لغةً واصطلاحاً.

أولاً- المفهوم اللغوي:

ينطلق مفهوم المكان من مفهومه اللغوي، فهو مشتق من الجذر الثلاثي "مكن" ويشير ابن منظور إلى "أنّ المكان والمكانة واحد، والمكان على وزن مفعل، فالعرب لا تقول في معنى هو منِّي مكان كذا وكذا إلا مفعل كذا وكذا بالنصب"[2].

و"المكان: الموضع والجمع أمكنة تقذالَ وأقذل وأماكن جمع الجمع، قال ثعلب: يبطل أن يكون مكانٌ (فعالاً)؛ لأنّ العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك، فقد دلّ هذا على أنّه مصدر من كان أو موضع منه، قال: وإنّما جُمعَ (أمكنَة) فعاملوا الميم الزائدة معاملة الأصلية؛ لأنّ العرب تشبه الحرف بالحرف كما قالوا: منارة ومنائر فشبهوها بفعالة وهي مفعلة من النور، وكان حكمه مناور"[3].

كما أوردها تحت باب الجذر "كَونَ" حيث يقول: "المكان لغة: الموضع، والجمع امكنة وأماكن، توهّموا الميم أصلاً حتى قالوا تمكّن في المكان، وهذا كما قالوا في تكسير المسيّل أمسلة، وقيل: الميم في المكان أصلٌ كأنّه من التمكن دون الكون، وهذا ما يقويه ما ذكرناهُ من تكسيره على "أفعلة"، وقد حكى سيبويه في جمعه "أمكنٌ" وهذا زائد في الدلالة على أنّ وزن الكلمة (فَعَال) دون (مَفْعَل)، فإن قُلتَ فإنّ (فَعالاً) لا يَكسرُ (أفْعُلٍ)، إلا أن يكون مؤنثاً كأتانٍ وآتُنٍ"[4].

ويقول الزبيدي: "المكان اشتقاقه من كان يكون، ولكنّه لما كثُرَ من الكلام صارت الميم كأنّها أصلية"[5]. ويؤيده في الرأي الأزهري، حيث دلّل على صحة الأصل بقوله: "بأنّ العرب لا تقول هو مني مكان كذا وكذا بالنصب"[6].

ثانياً- المفهوم الاصطلاحي:

حظي المكان باهتمام الباحثين والمفكرين منذ القدم والتصق بحياتهم التصاقاً شديداً فهو الركن الأساسي الذي يمارس فيه الإنسان تكوينه الحياتي، وتتفتح فيه مداركه المكانية[7].

والمكان بحكم هذا الالتصاق يُعدُّ جزءاً من حياة الإنسان منذ الأزل وإحساسه به إحساس فطري يشترك فيه جميع الناس وفي هذا الباب يشار إلى المكان بأنّه أكثر التصاقاً بحياة الإنسان، وإنّ إدراك الإنسان للمكان إدراك حيّ ومباشر، وهو يستمر مع الإنسان طوال سني عمر"[8].

وهو أيضاً من استخداماته اليومية والمستمرة سواء بقصد العيش أو التواصل مع الآخرين، هذا الاستخدام اليومي للمكان يكسبهُ أهمية خاصة؛ لأنه يؤدي دوراً يُسهم مع عناصر أخرى كالشخصية والبيئة الاجتماعية، الثقافية في تكوين السلوك الإنساني[9].

أما المكان في العمل الروائي فيأخذ مفهومه من باب أنّه الحيز الذي يحتضن الأحداث وهو المحرّك لنزاعات الذات وحكاياتها سواء أكان حقيقياً أو من نسج خيال الكاتب وهو لازمة لا بُدّ من وجودها في أي نص روائي[10].

كما أنّ المكان الروائي يُعدّ العالم الذي يخلق فيه الروائي أحداثه المرتبطة بروايته، فهو انزياح عن عالم الواقع، باتجاه عالم متخيل، وهو في الأصل مستمدّ من عالم الواقع[11].

وهو : "الموطن أو الأرضية التي تقع عليها أحداث الرواية، بالإضافة إلى وظيفته البنائية من خلال ربط أجزائها وتطوير الأحداث فيها "[12].

المحور الثاني: المكان في رواية "المد" لسميحة خريس:

اتخذ المكان في رواية سميحة خريس إيقاعاً خاصاً عكس رؤية الكاتبة للأماكن الواردة في روايتها، إضافة إلى واقع المكان عند كُلّ بطل من أبطال روايتها، التي جاءت على شكل حلقات متسلسلة، كُلّ حلقة لها عنوان وبطل، يلتصق بالمكان بدرجة شديدة، وتنطلق منه مغامراته، ورحلة حياته.

والمتتبع لحلقات الرواية يجد سطوة للبحر على أغلب الحلقات، فهو فاتحة الحكايات، ومكانها الأساس فإما تنطلق منه الرحلة، أو تؤول إليه، وعلى ضوء هذه الفاتحة يمكن التنقل إلى بقية الأماكن، برّاً، وبحراً، لتعكس حكاية البطل، وغربته التي عالجتها سميحة خريس ببراعة واضحة. فالمكان له مقومات خاصة كنوعية الموضع، والحوادث التي تجري فيه، وله أبعاد متميزة كالبعد النفسي، والاجتماعي[13]، وعلى ضوء ذلك يمكن تقسيم المكان في الرواية إلى قسمين بارزين هما:

أ- المكان المفتوح ب- المكان المغلق.

أ- المكان المفتوح:

يحمل المكان المفتوح فضاءً وأفقاً واسعاً من حيثُ الدلالة. فيتيح للبطل الحركة بلا قيود، حيث تتجول الشخصيات وتبرز الأحداث دون أن تتقيد بسقف، أو بحدود معينة، فتخلق الأحداث، ويتخذ أصحابها أفقاً واسعاً، يعكسون من خلالها قضاياهم، وهو ما أبرزته سميحة خريس في روايتها ومن أبرز الأمكنة المفتوحة عندها:

أولاً- البحرُ: أخذ البحر إطاراً مغايراً عند الكاتبة فكان المكان الابتدائي ونقطة الانطلاق لأغلب حلقات الحكاية، لاسيما وأنّ العنوان يرتبط بالبحر بعمق؛ أي المد، والحلقة الأخيرة أيضاً مسماة بعنوان الرواية ذاتها.

والبحر كما تراهُ سميحة خريس معادلاً موضوعياً لحكايات ووجع أبطال كل حلقة من حلقات روايتها، فهو الشاهد على رحلة البحث والوجع، وهو الناقل من بلاد الهموم إلى بلاد الأحلام. ومن أجل ذلك لجأت إلى استخدام لوازم أساسية مرافقة للبحر وهي: أ- الصياد ب- القارب جـ- الشاطئ د- الميناء.

وانطلاقاً من أولى حكاياتها أو سلسلة حلقات روايتها تبدأ "الرحلة": و هي نقطة الانطلاق للصياد الذي أضحى بمثابة المخلص لذاته، ولأبطال الحلقات المتتالية، حيث حرصت الكاتبة على ظهوره مع قاربه، لينطلق بالأبطال إلى الأرض الطيبة، أو الموعودة (أرض اللبن والعسل).

لم تتوانَ الكاتبةُ عن رسم معالم البحر بامتداد أفقه التي لا أول ولا آخر له، بمياهه الزرقاء، بسفنه الكبيرة، بشواطئه وقواربه، برحلة صياديه، وفي ذلك تقول:

".... ويصل إلى الشاطئ وأي من صيادي الأسماك، أبحر القارب وعينا صاحبه تلتمعان في ضباب الفجر، رويداً رويداً ابتعد الشاطئ بقواربه الفقيرة ورماله وصخوره، وما عاد هناك سواهم والبحر، لا أول له ولا آخر"[14].

ومنه أيضاً:

"صوت البحر وحده يتردد، وسطح المياه الساكن يخفي اضطرابات لا يمكن تفسيرها أشبه بإرهاصات زوبعة آتية من دون أن يراها أحد، لون البحر الداكن يتحول في لحظات إلى سطح فضي شديد التوهج إذا ما اصطدم بسيوف الأشعة المنبعثة من الشمس والشمس تلعبُ وحدها في فضاء مهيب يمتد من النظر إلى النظر... مياه البحر تضربُ برتابة جسد القارب، ويخلف أطرافه دفعات من الزبد الأبيض سرعان ما تذوب من جديد في بدن المياه الأم"[15].

وفي حلقة أخرى عنوانها "عدنان" يتحول البحر كمكان ابتدائي، ومفتوح إلى دلالة جديدة، ليصبحَ بوابة الانفتاح على العالم الخارجي، وليضحي أيضاً الناقل للعالم الجديد، الذي يسعى إليه بطل الحكاية، أو الحلقة، فهو السبيل للوصول إلى المدن المنفتحة حيثُ الحضارات والحلم، كما أنّه علامة على مزايا المدينة المرغوبة، وهو الخير بكل تفاصيله، وفي ذلك تقول خريس:

"البحر حوله خضم عظيم، تتلاشى كل الأشياء في ذاته إلا البحر، ومن سواه يعرف البحر ويعشقهُ! القوارب تسير في البحار والأجساد تسبح في المياه، إلا بحر يافا وحده يسبح في النفوس، يافا وحدها قادرة أن تدس مياهها بين الجلد والعظم يافا وحدها تمتزج فيها رائحة الملح برحيق البرتقال، قدماه حافيتان وهو يعدو على طول الشاطئ، يهرع نحو حضن الماء وقلب البحر..."[16].

ولأنّ للبحر عمقه الخاص عند الكاتبة، نراها تنطلق به إلى آفاق متعددة، ففي حلقة "ياسر" والتي تتماهى مع بقية حلقات الرواية تُحمل البحر صورة الاغتراب فغالباً ما يكون البحر في هذه الحلقة وغيرها البوابة للاغتراب، والانتقال من الوطن الخاص بالبطل إلى وطن آخر، لعلّه يجد فيه مطلبه، وغربة ذاته في وطنه، حيث تبدأ الرحلة بالذهاب إلى الميناء، فالصعود للقارب ثم ركوب أمواج البحر مع الصياد: "عيناه الواسعتان لا تستوعبان البحر من طوله، فهذا البحر لا حـــدود له، ويبدو بلا شاطئ أيضاً ولكنّ الصياد أكّد على شاطئ سيرسو عليه القارب أخيرا، البحرُ في بيروت موجات من الزبد الغاضب الملاطم، وأسوار عالية تحيط به من كل جانب..."(17).

والبحر عند الكاتبة مرتبط بعنوان روايتها المتسلسلة عبر حلقات وهو "المد" فهو أساس البحث الدائم عن الخلاص من وجهة نظر أبطالها، لكنه في الواقع السراب الذي لم يكتشفه الأبطال إلا عندما اجتمعوا، ليكتشـــفوا أنّ البحـــر مكـــان جمالي، عبروه بإرادتهم، برحلة مع صيادٍ في قارب لكنه كان حلماً خادعاً، نقلهم إلى الموت، والهاوية. وهو ما لخصـــته الكاتبة في آخر حكايات روايتها وعنوانها عنوان الرواية ذاتها:

"... لم أرَ أبداً بحراً كهذا.

قال عدنان:

... إذن لنبحث عن العمران.

..... همس صفوان

... أقسمُ أن هذا البحر يلحق بنا ... يقول حمد: – هذا سراب"(18).

ثانياً- المدينة:

تُمثل المدينة أفقاً واسعاً في العمل الروائي عامة، وعند سميحة خريس خاصة حيث تُعرف المدينة بأنها: "المكان الذي تلتقي فيه كُلّ عناصر الحياة المنتشرة والكثيرة فيها تتعدد وجوه الإنتاج الحضري، كما تتحول بداخلها الخبرة والتجارب الإنسانية إلى إشارات ورموز وأنماط للسلوك وقواعد للنظام"[19].

لقد عبرت سميحة خريس عن المدينة من خلال رحلة أبطالها مع الصياد، الذي كان ناقلاً وهمياً لأحلامهم المدفونة، أو كما عبرت عنه الكاتبة "... أنّ صياداً تحالف مع الشيطان فوضع خطة جهنمية تتيح له الحصول على دريهمات قليلة من جيوب الفقراء، كان يملك قارباً خشبياً هزيلاً وراح يُقنع الحالمين بأرض الذهب الأسود..." [20].

والمدينة في محطات رواية المد كانت الفاتحة، والسبيل لرحلة الأبطال، فهاهي في محطة الرحلة، أولى محطات المد يسيطر عليها السكون، والمجهول:

"بقايا من ليلِ الأمس وضباب كثيف هو بين الرطوبة والندى، يلفُّ هواء المدينة الساكن سكون القبور، يخيل للعين الآمنة أنه ما يميز بعد الخيط الأبيض من الأسود، ولكن عيناً خبيرةً كانت قادرةً على تمييز الأشياء بدهاءٍ خبيث"[21].

ثم يتوالى ظهور المدن في الحلقات التالية كعلامة على رحلة كُلّ بطلٍ سُميت الرحلة باسمه في الحلقة الثانية وعنوانها "عدنان" تقف "يافا" على بوابة حُلم بطلها فهي الماضي، وعبق الحضارة، والتاريخ، وهي جذور الطفولة، وذكرياتها، تتشارك ومثيلاتها من المدن "نابلس" وأريحا" الوجع ذاته، وجع الاحتلال، حتى "بيروت" لم تختلف عن شقيقاتها من المدن الفلسطينية، فهي تذكره بألم النكبة، ووجع الغربة، وأحزان المخيم: "يافا وحدها قادرة أن تدس مياهها بين الجلد والعظم، يافا وحدها تمتزج فيها رائحة الملح برحيق البرتقال"[22].

و"في بيروت، تجرع ألم النكبة وامتصّ صدمتها بشعارات العودة في بيروت ذات ذل المخيم..."[23].

وتستطرد خريس في عكس قيمة المدينة المكان في بقية مقطوعات روايتها؛ لتعمق أنّ المكان هنا يؤدي وظيفة التجربة المعاشة. فالمكان المعاش كتجربة داخل العمل الروائي، والقادر على إثارة ذكرى المكان – مكانه – عند القارئ هو مكان عاشهُ مؤلف الرواية، وبعد أن ابتعد عنه أخذ يعيش فيه بالخيال"[24].

وترى الباحثة أن شخصيات الأبطال قد تكون معادلاً موضوعياً لخفايا ما في داخل الكاتبة، أو الروائية خريس.

ومن المدن التي كشفت عنها رواية المد أيضاً وأخذت بعداً جمالياً، وعمرانياً "أبو ظبي" في حلقة "حمد" فهي تُجسد التطور العمراني من جهة، وترسم معالم بطلها، كشاب عربي حالم من جهة أخرى. "أبو ظبي" شاهقة كعمارتها، خضراء إلا أن روح حمد ظلت كسفيه وهو يرتدي كالآخرين "دشداشه" الأبيض الناصع، ويضع على رأسه عقالاً لكنه لم يتمكن أبداً أن يصبح مليونيراً..."[25].

وتعود الكاتبة إلى بيروت المدينة الحاضرة، والحالمة في الوقت ذاته، تلك المدينة التي احتضنت الدمار، وقسوة الزمن، وغربة بطلها "ياسر" ذلك الشاب العائد إلى يتمه، وطفولته، وفقدانه لوالده، وهو ذاته العاشق لعبير، تلك الفتاة التي يتقاسم معها الغربة، واليتم، والوحدة.

"البحر في بيروت موجاتٌ من الزبد الغضب وأسوار عالية تُحيط به من كل جانب... كم هو يتيم وكم هي هذه المدينة يتيمة أيضاً لقد اكتشف غربة بيروت حين التقى عبير وراح يذرعان الشوارع..."[26].

كما حملت المدينة بعداً نفسياً عند خريس ففي حلقة "عثمان" تظهر المدينة "الكويت" مرآةً لبطلها وكاشفةً لأوجاعه ولليأس، والوجع في عدم الحصول على العمل، وللضياع، ورحلة البحث، والاغتراب وكأنّ المدينة الحلم بالنسبة لعثمان، تحولت إلى صورةٍ أخرى من بلده التي لم تحتضن أبسط آماله.

"... وهو هنا كما في بلده يبحث عن عملٍ أيضاً، وكما قال له أحد أصدقاء والده: لقد تخرجت متأخراً، فإنّ آخر قال في الكويت: – لقد جئت متأخراً، لم يعد الحال كالسابق لن يقبل أي صاحب عمل خريجاً من دون خبرة، لقد تغيرت الأوضاع، شعر بالأسى وظنّ أنّ الجميع يتحملون تبعات ما حدث له، لم يخبرهُ أحد بأنّ شيئاً تغير..."[27].

والمدينة تجسد أيضاً صورة المجهول، ورحلة البحث عن الجديد عند الشباب الحالمين، فمتلازمات المدينة كالشوارع والمقاهي، ودور السينما، لوازم يبحث عن الشباب، وخاصة المراهقين انطلاقاً في رحلة البحث لإثبات الذات، وهو ما جسد "ياسر" في حلقته: "على بوابة دار السينما يحاول إقناع قاطع التذاكر بأنه تعدى السادسة عشرة فيردهُ خائباً، ويتعلم ياسر تدريجياً أن مجيئه إلى بوابة السينما وحيداً لن يقنع قاطع التذاكر، ولابد له من الذهاب مع عصبة من المراهقين منتفخي العضلات الذين يدخل تحت حمايتهم"[28].

وهي أيضاً تجسد التطور العمراني، والانقلاب الحضاري، حيث يحلم الشباب الطامح إلى التجديد:

".... فقد راح يهرب مع بهية إلى مناطق لا يراهما فيها أحد من معارفهما، إلى حيث العمارات الشاهقة الرخامية، والفلل المحاطة بالحدائق وشواطئ النيل الخالدة..."[29].

والمدينة أيضاً كما وضحت جغرافياً مركز الوزارات، والدوائر الرسمية، وحلم الراغبين بالعمل، لكن في مدن الأحلام تتقلبُ الموازين:

"وقال له آخر: – مشكلتك إنك تخرجت في هذا الزمان الرديء في الماضي يا ولدي كانت الوظيفة تسعى للمتعلم.

ويقول أبوه: – خير بإذن الله، عليه أن يصبر ويسعى... خير... خير.

وعند بوابة البيت قال أحد أصدقائه:

–اليوم تم إعفاء ستين موظفاً آخرين من عملهم، الوزارات تتخلص من موظفيها والمؤسسات الخاصة أعمالها تتقلص، لم يعد هناك عمل"[30].

ثالثاً– القرية/ الحي: لا تختلف مكانة القرية بمترادفاتها المختلفة عن المدينة كشاهد لرحلة أبطال رواية المد وإنْ كانت أقل انفتاحا، فهي محطة الذكريات، وحياة الفقر، والبؤس، والحرب، ووجع الطفولة، وفي ذلك تقول خريس: ".... في زقاق المخيم جلسات تفوح بالذكريات وفي آخره معسكر التدريب، وفي بيروت حصل على الشهادة الجامعية..... تذكر قمصان المخيم، وظنّ أنّ الوقت قد حان ليحضر للصغير سلاحاً على مقاسه، ليلتها ابتاع بندقية من البلاستيك تصدر أصواتاً عالية ولا تحمل فوهتها رائحة البحر..."[31].

وتظهر في روايات خريس متلازمات القرية، أو الحي، كالحارات، والأزقة والشوارع، وكلها تعلن عن الحياة، وتجسد رحلة كل بطل من أبطال روايتها، فالمكان اتخذ طابعاً ذاتياً، ففي حلقة "أحمد" تظهر تفاصيل الحارة، فهي تحمل ذكريات اللعب، والطفولة، ومدخلها يجسد حب الطفولة، وأحلامها:

"... ظلّ قلبه كبندول الساعة كلما رآها في مدخل الحارة أو دقت باب بيتهم تطلب زيتاً أو ملحاً اتسع القلب وازدادت حركته كلما كبرت، شعر به يقتلع من جذوره، حين أيقنَ أنّ لقلبها ذات الحركة البندولية كلما لمحته أو سمعت اسمه"[32].

ولم تغفل خريس إبراز الطابع القروي البسيط في ملامح الحي، حيث يعكس الحي الجانب الشعبي، والارتباط بالأسرة والفكر، والدين. كما اتضح في شخصية "عثمان": "حين يعتلي والده المئذنة العتيقة في الحي الشعبي في أم درمان يطأطئ خشوعاً يحبس صوت والده النقي السلسبيل أنفاسه، عاش عثمان في بيت دين فقير، وعرف مبكراً حب الكتاب، وحين راح يزور مكتبة والده العامر بالكتب الصفراء بدماء جديدة من مقتنيات الأدب والفنون التي يبتاعها..."[33].

والحيُّ يعكس البساطة في العمران، ومواد البناء، وطبيعة الحياة القروية:

"في مجمع بائس هو هجرة طينية في منطقة شعبية مجاور عثمان مع الهنود وبعض الباكستانيين.... إذا ما هبط الليل تذكروا رائحة التراب المبلل بالماء الندي وطعم الشاي المنعنع، وتناقلوا أخبار البلاد وتركوا للأسى اعتصار أفئدتهم"[34].

ومثال ذلك أيضاً: "... كان يرى أنّ والده عاش عمره كله بظروف غير مجدية، ولكنه تزوج وأنجب وعلم أبناءه تحت ظلال الحارة العتيقة..."[35].

رابعاً- السوق:

يعكسُ السوق كمكان مفتوح الحركة التجارية، وعمليات التبادل التجاري، والازدحام، حيثُ المحلات، والدكاكين والشوارع، والمقاهي، والبضائع المختلفة التي تكشف عن الحركة الدؤوبة للناس، والتقاليد الممارسة في تلك الأسواق.

"... في قلب السوق العريقة وحيث تزداد الحركة، وقف إلى جوار والده يتعلم أصناف القماش وأذواق النساء، وكيف يهرع إلى الرفوف المتراصة فيلقي بحمولتها على الطاولة يعرضها للزبونات الشقراء والسمراء الطويلة والقصيرة... وهو شرط لازم لمن أراد العمل في سوق عريقة لها تقاليدُها"[36].

ولم تتوانَ خريس في ربط المكان السوق بمنطقته الأم، كمدلول على الإرث، والعمق التاريخي للسوق، حيث تعكس الطابع التاريخي، والوجداني البسيط للمكان من جهة، وتبرز الأصالة، وشهرة المكان من جهة أخرى:

"... عاشق وهو مقتنع بأنّ كل شيء يليق بأية امرأة، وهو درسٌ يدرك قيمته تماماً أي تاجر يعمل في بيع الأقمشة في سوق الحميدية الدمشقي"[37].

ومنه أيضاً: "ودكانه يبدو سجناً صغيراً ارتضاهُ لنفسه طوال سنوات حياته الخمسين، وأكابر القوم لا تعرف تاجراً صغيراً اسمه صفوان في دكان متواضع في سوق الخياطين في الحميدية"[38].

وفي حلقة "عبد القادر" تقول خريس:

"عشرات السلاسل الذهبية الرفيعة والخواتم الساحرة والأساور والحلي يلملمها كل مساء من فوق الرفوف الزجاجية يودعها صناديقها بيديه بعد انصراف العمال، يضبط جهاز الأمان ثم يقفل المحل، يخرج عبد القادر من سوق الصاغة العتيق وهو يتأبط مجموعة من الكتب.."[39].

ولم تغفل خريس متلازمات السوق كالدكاكين، حيث عكست الطابع البسيط في بنيانها "عاد إلى دكانه قلقاً لم يكد يرفع بوابته الحديدية حتى وجد في مواجهته شاباً هزيلاً..."[40].

"ودكانه يبدو سجناً صغيراً ارتضاه لنفسه طوال سنوات حياته الخمسين، وأكابر القوم لا تعرف تاجراً صغيراً اسمه صفوان في دكان متواضع في سوق الخياطين في الحميدية"[41].

ب- المكان المغلق:

وهو المكان الأقل انفتاحاً في حدوده، وهو بوابة الانطلاق الأولى، أو العالم الخاص بكُل فرد، ٍ ينتقل منه إلى العالم الأوسع، والأكثر انفتاحاً.

وظفت خريس في روايتها المكان المغلق بصورة عميقة، فأبرزت تفاصيله؛ لأنه يرتبط ارتباطاً قوياً بحياة كل شخصية من شخصيات روايتها، ومن أبرز الأماكن التي شغلت حيزاً واضحاً من حلقات الرواية:

أولا_البيت: يُعدُّ الموطن الأساس ومحطة الانطلاق لرحلة البطل، وهو أيضاً برّ الأمان إن أغلقت الأبواب، وباب النجاة والعودة، والملاذ بعد كُلّ انطلاق، وهو "جسد وروح، هو عالم الإنسان الأول، قبل أن يقذف بالإنسان في العالم"[42].

وعند الوقوف على تجليات البيت كمكان بارز في رواية "المد" نجد صورة عميقة له من حيثُ التفاصيل، والتقسيمات التابعة له كالحجرة، والصالة، والبوابة والساحات الخارجية المحيطة به، والسقيفة، أو العلّية....الخ.

وفي كل وقفة عند تفاصيل البيت تبرز خريس جانباً من حياة بطلها، فالبيت في حلقة "عدنان" كشف عن بساطة وفقر أهله حيث الحجرات الصغيرة وبساطة الأثاث والعيش:

"... وعرف السلاح حين أتى به أبوه لأول مرة إلى حجرتهم الصغيرة، قال عدنان مازجاً الجدّ بالهزل: – منذ أتينا لم نلبس شيئاً على مقاسنا، فستان أختي يليق بجدتي وبنطالي إما قصير، وحدها هذه البندقية على مقاسي"[43].

وهو عند "صفوان" عالمه مع أولاده وعائلته وخصوصاً ابنه طارق، فهو يكشف عن الجانب المخفي من حياة طارق حيث عشرات الكتب وحجرته هنا ليست مجرد مكان للعيش بل العالم الخاص بحياة صاحبه.

"... وعاد إلى البيت، في هجرة طارق عشرات الكتب والأوراق المتناثرة، هل قرأ صغيره كل هذه الأوراق"[44].

ومن تفاصيل البيت "السقيفة" التي تجسد البساطة من جهة وعمران والعمران في البيوت الشعبية من جهةٍ أخرى.

"وفي لحظات بعد ذلك كان الحاج يرمي بالكتب بالأوراق وراء أكداس البصل وأواني الزيت والزيتون والمخللات في سقيفة البيت....."[45].

أمّا في حلقة عبد القادر فالحجرة كانت مغايرة لحجرته الخاصة، فهي حاملة لوجع وعذاب الأسر "وحين استقرّ بهم المقام في حجرة خالية، واصلوا ضربه بقسوة وهو في حيرته وتساؤله..."[46].

والبيت بتفاصيله وخاصة الحجرة في حلقة "علي" يبرز رفض علي لوالده الذي أدمن شرب الكحول، فكان حاملاً لوجع الطفولة وبساطتها وإحساسه بالضياع ووالده على قيد الحياة لرفضه واقعه المرير، خاصة أنّه فضّل العيش معه وترك والدته:

"... ولكن علي اهتزّ واختلّ توازنه تماماً، في ليلة لم يعرف النعاس إليه سبيلاً، خرج إلى الصالة، فلمح ضوء حجرة والده مازال مضاءً، طرق الباب فلم يسمع رداً، دفع الباب بلطف والده ممدّدٌ فوق السرير بكامل ملابسه وعلى الأرض بالقرب منه زجاجة تفوح منها رائحة شديدة، جلس القرفصاء، تأمل الزجاجة، أوشك أن يقول أنها الخمر، بل يقينا، أنها الخمر..."[47].

وفي حلقة "عثمان" كشف البيت عن الالتزام الديني، وتربية الأبناء على قراءة القرآن، والتفقه به، والاطلاع على كتب الأدب وغيرها.

"عاش عثمان في بيت دين فقير، وعرف مبكراً حب الكتاب، وحين راح يزور مكتبة والده العامر بالكتب الصفراء بدماء جديدة من مقتنيات الأدب والفنون التي يبتاعها..."[48].

ومن التفاصيل التي ظهرت جلية للبيت البوابة، والحوش حيث تنعكس بساطة العيش، وطبيعة البناء والعمران:

"وخرجت "الحاجة" وقد التقتْ بثوبها الأبيض إلى الحوش، وراحت ترش ذرات الماء فوق الأرض الترابية... جلس أبو عثمان في بطن "الحوش" يحتسي شاي المساء، ووقف عثمان قرب البوابة الكبيرة، يرقب الشارع"[49].

أمّا البيت عند "حمد" فكشف عن الحياة في القرى فالبيوت بسيطة طينية في حارات ضيقة، وأحياء شعبية، وتمثل عالماً مغايراً لأحلامه، حيث يحلم بالعمارات الشاهقة والبيوت المعجبة:

"وبيوت الصيادين وشواطئ البحر، فكأنما توقف العصر أمام جلفار ولم تعجبه، فقرر عدم المجيء إليها فها هو النفط يغمر البلاد ويعمرها وينسى جلفار، البيوت الطينية تتحول بين رفة العين والأخرى إلى عمارات شاهقة، ما عدا بيوتك يا جلفار..."[50].

هذه البساطة هي ذاتها عند "عثمان"، لكنها بساطة تحمل صورة الغربة، ووجعها وهموم المغتربين، إضافة لطبيعة العمران:

"في مجمع بائس هو هجرة طينية في منطقة شعبية تجاور عثمان مع الهنود وبعض الباكستانيين وفي الحجرة ثلاثة من شباب بلاده يحملون مثل ملامحه وهمومه وضياعه وغربته، إذا ما هبط الليل تذكروا رائحة التراب المبلل بالماء الندي وطعم الشاي المنعنع وتأملوا أخبار البلاد وتركوا للأسى اعتصار أفئدتهم"[51].

ثانيا_المدرسة:

تظهر المدرسة بأفقها البسيط فهي مهد العلم، وبوابة الحضارات، وإن عانقت الطفولة في مراحلها المختلفة، وهي العتبة الأولى للانطلاق للجامعة، والارتقاء الفكري، وكان هذا الأفق هو أول ما عبرت عنه خريس، في حلقة من حلقات روايتها وعنوانها "حمد":

"تظلّين عالماً مغلقاً ما بين مدرسة وحارة، وقد ضعت المدرسة حمد" فانتهى بشهادة جامعية واستقرت به الرحال "في أبو ظبي" كسواه ممن يبحثون عن طموح ومستقبل أكثر ضياءً"[52]، ومنه أيضاً في حلقة "ياسر": "فهو كلما لعب كرة القدم في فناء المدرسة، اشتعل أوار هذه الطاقة فانطلق يتسكع في شوارع بيروت غاضباً خائفاً ضائعاً"[53].

وتخرج المدرسة بصورة الرفض لقيود الفقر، والعجز عن الحصول على وظيفة، ففي حلقة "عثمان" يُعلن عن ثورته على المدارس التي أفنوا أعمارهم في التتلمذ فيها. وعندما كبروا عجزوا عن الحصول على وظيفة في عالم، كما يصفهُ تغيرت فيه الموجودات: "اليوم تم إعفاء ستين موظفاً آخرين من عملهم، الوزارات تتخلص من موظفيها والمؤسسات الخاصة أعمالها تتقلص، لم يعد هناك عمل.

يقول عثمان: – لماذا لا تغلق المدارس أبوابها إذن؟

يتمتم آخرُ: – سيحدث ... سيحدث"[54].

الخاتمة:

لقد توصلت الباحثة في هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:

تنوع محاور المكان في رواية المد من خلال حلقات متعددة، حيث برز المكان المفتوح، والمغلق، وكان لكلٍّ منهما ارتباط واضح، بكل حلقة من حلقات الرواية.

ارتبط المكان بالشخصية فكان معادلاً موضوعياً لقصتها، ومبرزاً لجوانب حياتية متعددة لها، كالجانب النفسي، والاجتماعي والفكري، والديني وغيرها.

كانت بعض الأماكن سواء المفتوحة، أو المغلقة، صورة حضارية، أو عمرانية للمكان، ولحياة كل بطل من أبطال رواية المد. وكأنّ المكان مرآة لقصته، وواقعه الحالم.

وظفّ المكان عنوان الرواية "المد" رحلة البحث، فأبطال جميع الحلقات كانوا حالمين، ورحلة البحث عندهم كانت من خلال المكان، حيث تلتقي المتلازمات (القارب – الصياد – البحر_الميناء) ويفيض بها إلى المكان الحلم، أرض فلسطين، في متلازمات ثابتة أيضاً، حيثُ اللبن، والعسل، وملاذ الحيارى المحبطين، والهاربين من ظلم الأماكن، وقسوة بلادهم.

وأخيراً كان المكان في رواية "المد" بوابة مزجت بين الواقع الحالم، والحلم الضائع؛ فالمكان الواقعي نقل الأحلام. إلا أنّ أبطالها اكتشفوا برحلة البحث ضياع أحلامهم، وعدم وجود المكان الحلم، الذي بعثر أملهم وهو ما عكسته الأماكن الواردة في الرواية.

وتوصي الباحثة الدارسين بإعطاء الرواية العربية النسوية عامةً، والأردنية خاصةً اهتماماً، وحظاً أوفر من الدراسات العلمية؛ لغنى أعمالهنّ الفنية.

Abstract

The aesthetics of the place in the novel of " Extension/ Al-Mad" for Samiha Khorais An analytical study

By Abeer Jarad Al-Nawaiseh

This study entitled " the aesthetics of the place in the novel of " Extension/ Al-Mad" for Samiha Khorais" aimed at identifying the aesthetics of the place and their types in the targeted novel. The study did so by demonstrating the meaning of place linguistically and conceptually, then addressing the place types mentioned in the novel, including open and closed places, as well as the extent to which they are related to the reality of place and its various indicators in order to come up with a specific vision that reflects the aesthetics of the place and its nature in the poetry of Samiha Khorais, and does the place actually reflects the novel's folk and characters. The study used the descriptive analytical approach by identifying the aesthetics of the place and linking them with the events and characters of the text as well as its indication.

The results revealed that the domains of place varied among the open and closed domains. These places reflected the psychological, social, intellectual and religious aspects of the characters' lives, in addition to reflecting the cultural and architectural image of the place. In the light of the results, the study recommended the necessity of giving the Arab feminist novel in general, and the Jordanian novel in particular, more investigation within the scientific researches.

Keywords: place, open place, closed place, aesthetics of the place, extension.

الهوامش:-

([1])انظر وزارة الثقافة، معجم الأدباء الأردنيين في العصر الحديث، ط1، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 2014، ص 136 وانظر: محمد المشايخ، معجم أديبات الأردن وكاتباته، ط 1،د. م، عمان، 2012، ص 98-99.

([2]) ابن منظور "جمال الدين محمد بن مكرم"، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1994، مجلد مج 13/ ص 414 "مادة مكن".

([3]) ابن منظور، لسان العرب، "مادة مكن"، مج 13/ ص414.

([4]) ابن منظور، لسان العرب، "مادة كون"، مج 13/ ص365.

([5]) الزبيدي "مُحب الدين السيد الواسطي"، تاج العروس من جواهر القاموس، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، د. ت، مادة "كون".

([6]) الأزهري (محمد بن أحمد)، تهذيب اللغة، تحقيق: علي حسين هلالي، د. ط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة – مصر، د.ت، ج10/ ص294، "مادة مكن".

([7]) انظر: محمد العضايلة، المكان الأردني، دراسة في الشعر الأردني المعاصر، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، 2003، ص1

([8]) نبيلة إبراهيم، خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول، مج9، ع(1+2)، 1990، ص49.

([9]) محمد المصطفى، لغة المكان، مجلة الفيصل، العدد (228)، أكتوبر، نوفمبر، 1995، ص40.

([10]) خالد حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، الخطاب الروائي لإدوارد الخراط أنموذجاً، د.ط، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، 1421هـ، ص60.

([11]) انظر: إبراهيم نمر موسى، جماليات التشكيل الزماني والمكاني لرواية "الحواف"، مجلة فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ج122 / ع 2، 1993، ص313.

([12]) غالب هلسا، المكان في الرواية العربية، ط1، دار ابن هاني، دمشق 1989، ص9.

([13]) سيزا القاسم، بناء الرواية، د. ط، دار التنوير، بيروت، 1985، ص74؛ وانظر: فرزانة قاسمي وأحمد صاعدي، غالباً، المكان في رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغماني: دراسة تحليلية، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، ماليزيا، مجلد 7، رقم1، 2016، ص12.

([14]) سميحة خريس، رواية المد، ط2، الآن ناشرون، عمان، 2015، ص6.

([15]) سميحة خريس، رواية المد، ص7.

([16]) سميحة خريس، رواية المد، ص9.

([17]) سميحة خريس، رواية المد، ص28.

([18]) سميحة خريس، رواية المد، ص73 – 74.

([19]) محمد غنيم، دراسة في الأنثروبولوجيا الحضرية، د. ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987، ص154.

([20]) سميحة خريس، المد، ص3.

([21]) سميحة خريس، المد، ص5.

([22]) سميحة خريس، المد، ص9.

([23]) سميحة خريس، المد ص10.

([24]) غالب هلسا، المكان في الرواية العربية ، ص34–35.

([25]) سميحة خريس، المد، ص22.

([26]) سميحة خريس، المد، ص29.

([27]) سميحة خريس، المد، ص67.

([28]) سميحة خريس، المد، ص29.

([29]) سميحة خريس، المد، ص15.

([30]) سميحة خريس، المد، ص63.

([31]) سميحة خريس، المد، ص10–11.

([32]) سميحة خريس، المد، ص14–15.

([33]) سميحة خريس، المد، ص61.

([34]) سميحة خريس، المد، ص68.

([35]) سميحة خريس، المد، ص17.

([36]) سميحة خريس، المد، ص33.

([37]) سميحة خريس، المد، ص35.

([38]) سميحة خريس، المد، ص39.

([39]) سميحة خريس، المد، ص42.

([40]) سميحة خريس، المد، ص38.

([41]) سميحة خريس، المد، ص39.

([42]) غاستون باشلار، جماليات المكان "ترجمة غالب هلسا"، د. ط، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 2020، ص38.

([43]) سميحة خريس، المد، ص10.

([44]) سميحة خريس، المد، ص38.

([45]) سميحة خريس، المد، ص39.

([46]) سميحة خريس، المد، ص49.

([47]) سميحة خريس، المد، ص56.

([48]) سميحة خريس، المد، ص61.
([49]) سميحة خريس، المد، ص62.
([50]) سميحة خريس، المد، ص22.
([51]) سميحة خريس، المد، ص68.
([52]) سميحة خريس، المد، ص22.
([53]) سميحة خريس، المد، ص28.
([54]) سميحة خريس، المد، ص63.

المصادر والمراجع:

1- إبراهيم، نبيلة، خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول، مجلد 9، عدد (1+2)، 1990.
2- الأزهري، (محمد بن أحمد)، تهذيب اللغة، تحقيق: علي حسين هلالي، د.ط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر، د.ت.
3- باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، د. ط، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 2020.
4- حسين، خالد، شعرية المكان في الرواية الجديدة للخطاب الروائي لإدوارد الخراط نموذجاً، د. ط، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، 1421هـ.
5- خريس، سميحة، رواية المد، ط2، آلان ناشرون، عمان، 2015.
6- الزبيدي، (محي الدين السيد الواسطي)، تاج العروس من جواهر القاموس، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
7- العضايلة، محمد، المكان الأردني، دراسة في الشعر الأردني المعاصر، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، 2003.
8- غنيم، محمد، دراسة في الأنثروبولوجيا الحضرية، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987.
9- القاسم، سيزا، بناء الرواية، د.ط، دار التنوير، بيروت، 1985.
10- قاسمي وصاعد، فرزانة وأحمد، جماليات المكان في رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي "دراسة تحليلية"، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، ماليزيا، مجلد (7)، رقم (1)، 2016.
11- مشايخ، محمد، معجم أديبات الأردن وكاتباته،ط1،د.م،عمان، 2012
12- المصطفى، محمد، لغة المكان، مجلة الفيصل، عدد (228) أكتوبر – نوفمبر، 1995.
13- ابن منظور، "جمال الدين محمد بن مكرم"، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1994.
14- موسى، إبراهيم نمر، جماليات التشكيل الزماني والمكاني لرواية الحواف، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الجزء 122 / العدد 2، 1993م.
15- هلسا، غالب، المكان في الرواية العربية، ط1، دار ابن هاني، دمشق، 1989م.
16- وزارة الثقافة، معجم الأدباء الأردنيين في العصر الحديث، ط1،منشورات وزارة الثقافة، عمان، 2014